الرحالة المستشرقون مستقبل لمشروع استعماري

م.م. محمد جهاد عبد ا.د. قحطان عدنان بكر

جامعة الانبار- كلية الآداب

المستخلص

لعب الرحالة المستشرقون دورا بارزا في تناول الدراسات الاستشراقية منذ بداية مراحلها الاولى مرورا بجمع المخطوطات الاسلامية ، ونقلها الى الغرب ، والقيام بحفظها وفَهْرَستها. وكان المستشرقون يجوبون الديار الاسلامية ويشترون المخطوطات الاسلامية بأبخس الاثمان. كما قام الرحالة المستشرقون بالتأليف الشخصي الذي كان يذهب نتاجه الى الحكومات الاستعمارية، مع الدس والطعن في مؤلفاتهم وتصديرها الى الشرق. اضافة الى تناول هؤلاء الرحالة الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلدان الاسلامية. ويربط البعض بين الاستشراق والاستعمار حيث يعتبر الاول مقدّمة للثاني، فالأول كان يجري مسحًا ثقافيًا لبلاد العرب والمسلمين، ويتقدّم الاستعمار عندما تكتمل الصورة عن البلاد المُستعمرة.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، الاستعمار، التاريخ الاسلامي، الرحالة، الاسلام.

The orientalists' travelers are the future of a colonial project

Assist. Lecturer: Mohammed J. Abid Prof. Dr. Qahtan A. Bakr
University of Anbar –College of Arts
mja_198555a@uoanbar.edu.iq

Abstract

Oriental travelers played a prominent role in dealing with oriental studies from its early stages through the collection of Islamic manuscripts, their transmission to the West, their preservation and indexing. The orientalists roamed the Islamic lands and bought Islamic manuscripts at the lowest prices. The orientalist travelers also carried out personal authorship, the products of which were going to the colonial governments, with the intrusion and discrediting of their books and their export to the East. In addition, these travelers dealt with the political, economic and social conditions of Islamic countries. Some link between Orientalism and colonialism, as the first is considered an introduction to the second. The first was conducting a cultural survey of Arab and Muslim countries, and colonialism advances when the picture of the colonized countries is complete.

Key words: Orientalism, colonialism, Islamic history, travelers.

المقدمة

تعرض الاسلام ومنذ نشأته والى الان لكثير من الهجمات الشرسة التي سعت من خلالها القضاء عليه، وعلى الرغم من الاختلاف الزماني والمكاني واختلاف الوجوه، واللغات، في تلك الهجمات الا ان الغاية كانت واحدة، تمثلت بمعاداة هذا الدين واهله تاريخا وحضارة، فأخذت اوربا على عاتقها حمل لواء العداء لهذا الدين مستعينة بامكاناتها الاقتصادية، والعلمية مستخدمةً اساليب شتى من اجل ذلك، وكان من بين تلك الاساليب استعمار البلدان الاسلامية ومحاولة السيطرة عليها واضعافها، ونهب خيراتها، ولتحقيق هذه الغاية كان لابد من وجود وسائل تسهل من سيطرة الدولة الاوربية الاستعمارية على البلدان العربية والاسلامية، فكان الاستشراق اهم تلك الوسائل؛ وذلك لان مفهوم الاستشراق بحد ذاته يعطي كثير من المعاني ويمكن القول ان الاستشراق هو دراسة ثقافة شعوب الشرق، وبالإمكان القول ان الاستشراق هو البحث والتنقيب بإثار الشرق وبالإمكان ان نعبر عن الاستشراق بالكثير من التعريفات وقد منحت هذه المرونة في تعريفه بقيام كثير من الرحالة بعمليات التجسس تحت عنوان البحث والتنقيب والاستكشاف العلمي.

وعلى الرغم من ان الدول الاستعمارية استطاعت من تحقيق اهدافها في السيطرة السياسية، والاقتصادية، والعسكرية على الدول العربية والاسلامية، الا ان ذلك لم يكن كافيا امام طموحها ورغبتها في القضاء على الاسلام؛ اذ لم تكتفِ اوربا بالسيطرة على مقدرات تلك البلدان وانما سعت الى السيطرة على عقول وافكار ومعتقدات شعوبها، فقامت مرة اخرى بالاستعانة بالاستشراق من جديد، وتحت غطاء البحث العلمي اخذ المستشرقون يتناولون التاريخ الاسلامي ويفسرونه من وجهة نظر غربية نصرانية حاولت جاهدة في الطعن بهذا التاريخ، بل والعمل على تشكيك المسلمين بدينهم.

ان المتتبع لسير التاريخ الاستعماري والاستشراقي يجد ان احدهما ملازما للآخر في جميع الفترات فضلا عن الرحالة والرحلات التي كان لها الدور الكبير في ازالة العقبات امام طريق الاستعمار وبذلك مثلَّ الاستعمار والاستشراق والرحلة فريقا واحدا يكمل بعضه بعضا، ولو رجعنا لجذور هذا الفريق لوجدنا بانها تمتد الى حملات الحروب الصليبية التي سعت من خلالها اوربا لاحتلال العالم الاسلامي والقضاء عليه، وقد حاولنا من خلال هذا البحث المتواضع ان نسلط الضوء على العلاقة الوثيقة بين الرحلات الاوربية الى الشرق الاسلامي،

واهمية الدور الذي لعبته هذه الرحلات خدمةً للاستعمار والاستشراق الذي اتخذها ركيزة اساسية في الوصول الى غاياته، وقد قسم البحث الى ثلاثة مباحث تناولنا في المبحث الاول دوافع الرحلة الاستشراقية، وتكلمنا في المبحث الثاني عن علاقة الرحالة بالاستعمار والتبشير، وخصص المبحث الثالث عن الاستشراق ودور الرحالة فيه وبيان العلاقة الوثيقة بين الرحالة من جهة وبين المستشرقين من جهة اخرى، خصوصا وان اغلب هؤلاء المستشرقين بداو مشوارهم كرحالة في المناطق العربية والاسلامية ، وقد تم التركيز على المستشرقين الذي تواجدوا في القرنين التاسع عشر و العشرين في نطاق هذا البحث .

اسال الله (سبحانه وتعالى) ان يكون ما قدمناه في هذا البحث نافعا وخالصا لوجههِ الكريم.

المبحث الاول

الرحلة الاستشراقية ودوافعها

الرحلة لغة : من الترحل، ويعني: الانتقال، وقيل ايضا ان الرحلة تعني: الارتحال، والرحلة الوجه الذي تأخذ فيه وتريده، وقيل الرحلة السفرة الواحدة[١]، ويقال ان الرحلة اسم للارتحال والمسير: ويقال: دنت رحلتنا، ورحل فلان وارتحل[٢] .

الرحلة اصطلاحا : الترحال والارتحال من مكان الى اخر ، و اطلق اسم الرحالة على الشخص الذي يُكثر الترحال، وقد ذكر الله (عزَّ وجلَّ) الرحلة في القران الكريم بقوله: **{رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ}**[٣]، اشارة للرحلات التجارية الشهيرة التي كان يقوم بها العرب قبل الاسلام، وقد عُرف عن العرب حبهم للانتقال والترحل؛ بسبب اشتغالهم بالتجارة التي تُعد ابرز الاسباب التي دفعتهم للارتحال والاسفار، وقد ازدادت رغبة العرب في الارتحال بعد الاسلام خصوصا بعد الانتصارات المتلاحقة التي كانت سببا في فتح كثير من البلدان ما ادى الى زيادة رقعة الدولة الاسلامية، وكان هذا عاملا اخر دفع العرب للارتحال؛ بدافع التعرف والاطلاع على البلاد الجديدة التي دخلت بعد فتحها في حوزتهم، تلك البلاد التي امتدت من الهند وحدود الصين شرقا الى اسبانيا وجبال البرانس غربا، ومن القوقاز واسيا الصغرى شمالا الى السودان جنوبا، لتصبح دولة واحدة تشترك في الدين والثقافة، وقد شجع ذلك جميع المسلمين في هذه الدولة على الرحلة ولم يقتصر الامر على العرب فقط؛ اذ كانت الحاجة الدينية التي تتمثل في اداء فريضة الحج من ابرز واهم دوافع الرحلة آنذاك[٤].

لم تكن الرحلة حكرا على العرب وحدهم؛ بل كانت جميع شعوب العالم تزاول هذا النشاط وكانت الرحلة مما شُغف بهِ الغرب؛ اذ طاف الرحالة الاوربيون في ارجاء اسيا وافريقيا في ازمنة مختلفة(٥)، ولم تكن دوافع الرحلات الاوربية متشابهة بل كانت لكل رحلة دوافعها الخاصة على ان الدافع الديني – سواء من خلال تسليط الضوء على الاسلام او من خلال محاول التبشير ونشر النصرانية– كان من ابرز تلك الدوافع، فضلا عن النشاطات السياسية والاستعمارية، التي اتخذت من الرحلة ستارا لها لسهولة التنقل بين الامصار والبلدان، ويعد هذا الدافع – الاستعماري – من الدوافع المشتركة بين جميع الرحالة على اختلاف توجهاتهم؛ فجميعهم خدمة مصالح الدول الاستعمارية بطريقة او بأخرى(٦).

اما نطاق تلك الرحلات فلم يكن محددا في منطقة معينة من البلاد العربية؛ اذ شملت تلك الرحلات كثير من المناطق فكما كانت الجزيرة العربية نقطة جذب للرحالة، كانت بلاد الشام هي الاخرى تمثل نفس المستوى ان لم تكن اكثر جذبا لهؤلاء الرحالة؛ وذلك بسبب وجود بيت المقدس فيها والذي يعد البقعة الاقدس في المنظومة الكتابية ، بنفس الوقت الذي يؤمن بقدسيته اليهود والمسلمون، وكذلك تنوعت الدوافع لتلك الرحلات فكان وجود العامل الديني واضحا في تلك الرحلات؛ من خلال زيارة الاماكن التي ارتبطت بحياة المسيح عيسى بن مريم (عليه وعلى نبينا الصلاة والصلام)، فضلا عن اداء الحج الذي كان دافعا هاما من بين دوافع الرحلة الاوربية الى الشرق، كما كان للدافع الاقتصادي المتمثل بالمتاجرة وتحقيق الارباح المالية احد العوامل المهمة، وقد انضم كثير من التجار الى صفوف الرحالة من اجل تحديد ما يحتاجه المشرق من بضائع وسلع من اجل توفيرها، ومن بين الدوافع الاخرى الرغبة في استجلاء سحر الشرق والاطلاع عليه ومشاهدة معالمه بوصفه عالما غريبا عن معالم الاوربيين، فضلا عن رغبة كثير من النصارى للتواصل مع النصارى الموجودين ضمن حدود الشرق الاسلامي(٧).

ركز الاوربيون اهتمامهم منذ البداية على شبه الجزيرة العربية؛ خصوصا على المدن التي مثلت الواجهة الدينية ومركز استقطاب المسلمين في شتى ارجاء العالم مما دفعهم الى جعل الجزيرة العربية بشكل عام ومدينتي مكة المكرمة والمدينة المنورة بشكل خاص ساحة لنشاطاتهم المختلفة، محاولين اختراق المسافات من اجل الوصول الى هاتين المدينتين وتسليط الضوء عليهما ودراستهما بشكل دقيق، ولم يكن الرحالة الاوربيون الذين بدات مغامراتهم بشكل

فردي في بداية الامر من اجل الوصول الى الجزيرة العربية منذ القرن السادس عشر الميلادي هم اول من بدا بتلك الرحلات في هذه المنطقة؛ فقد سبقتهم رحلات البرتغاليين البحرية الذين استطاعوا من خلالها الوصول الى سواحل شبه الجزيرة العربية، الا انهم لم يحاولوا الدخول والتوغل الى تلك الجزيرة مكتفين فقط بالعثور على اهم المرافيء فيها؛ كون التنافس الاوربي في ذلك الوقت كان من اجل المصالح التجارية والطرق البحرية والاستعمار الذي يمهد لكل ذلك[٨].

وجدت الحكومات الغربية الساعية للسيطرة والهيمنة على الشرق الاسلامي في كثير من الرحالة غايتها، ما دفعها الى التعاون معهم واستخدامهم في تحقيق غاياتها، ومن اجل النجاح في هذه المهمة كان الرحالة يعدون انفسهم اعدادا يجعلهم بارعين في التعامل مع المجتمع الجديد الذي سيطوفون بين طرقاته، لذلك نراهم غالبا ما يتسلحون بسلاح اللغة العربية، فضلا عن علوم اخرى تساعدهم في رحلتهم كما فعل الرحالة (يوهن لودفيك بوكهارت) (Johann Ludwig Burckhar) ، ويسميه الانكليز جون لويس , وهو مستشرق سويسري, ولد سنة ١١٩٩ هـ في لوزان تعلم العربية وقرا القران وتفقه بالدين الاسلامي [٩] ، وبدا رحلته في العام (١٨٠٩م) من لندن باتجاه مصر والسودان ، وتلقى محاضرات في الكيمياء، والتعدين، والطب، والجراحة، وفي فترات الفراغ بين هذه الدراسات كان يدرب نفسه على القيام بالرحلات الطويلة مشيا على الاقدام، تحت حرارة الشمس، وكذلك النوم على الارض، والاعتماد في الطعام على انواع من الخضر[١٠]، وكذلك فعل المستشرق الفنلندي (جورج اوغست والن) (Georg August Wallin) مستشرق فنلندي ولد في جزائر الاند وتعلم فيها واهم مؤلفاته كتبا في اللاتينية اسماه اهم الفروق بين لهجات العرب المتأخرين والمتقدمين [١١] في رحلته عام (١٨٤١م)، اذ درس اللغات الانكليزية، والفرنسية، والالمانية، والفارسية، والعربية، والروسية، فضلا عن دورة سريعة دخل فيها في مجال الطب تعلم فيها بعض الاعمال الطبية والعلاجية ليسافر بصفة طبيب، منطلقا من بلاده فنلندا الى باريس التي درس فيها بعض الوقت المخطوطات العربية في مكتبات باريس، ثمَّ انتقل منها الى القسطنطينة ومنها الى الاسكندرية التي وصلها عام (١٨٤٣م)، ومنها انتقل الى القاهر ليبدا مشوار تعلمه الديني اذ استطاع حفظ اجزاء من القران الكريم، والاطلاع على التعاليم الدينية والقوانين الاسلامية، وبدا بتدريب نفسه من اجل التعود على الصوم حتى صار من الصعب

تمييزه عن رجال الدين في مصر وتسمى باسم (الشيخ عبد الولي)، الذي استطاع لشدة اتقانه حياة المسلم وتصرفاته ان يؤدي فريضة الحج[١٢]، واستطاع الرحالة البريطاني (وليام غيفورد بالغريف) (William Gifford Palgrave) من الدخول الى البلدان العربية وهو يرتدي الزي العربي، متبعا التقاليد العربية منتحلا شخصية طبيب اسنان واطلق على نفسه (سليم ابو محمود العيس) وكان يعمل الى جانب مهمته السياسية مبشرا بصورة سرية[١٣] .

على ان كثير من هؤلاء الرحالة لم يصلوا الى تحقيق غايتهم من الرحلة؛ وذلك بسبب الموت او القتل الذي يتعرضون له في رحلاتهم، مثل الرحالة الالماني (اولريك ياسبر سيتزن) Seetzen (Ulrich Jasper) الذي كان عميلا المانيا مُرسل من قِبل الحكومة، وكانت مهمته ارسال التقارير الى القيصر في روسيا، فبدا يجوب البلاد العربية من دمشق وحلب الى القاهرة والاردن، ثم الى الحجاز واليمن، مطلقا على نفسه (المستشرق) لإيهام الناس بانه عالم، الا ان امره كُشف واشتبه به بانه جاسوس فتم قتله وهو في طريقه الى اليمن عام (١٨١٠م)[١٤].

وكان بعضهم يُضرب ويطارد تاركا امتعته ومذكراته فارا بنفسه خوفا من القتل، كما حصل مع المستشرق (ادولف فون فيري) الذي كان يعمل لصالح ملك اليونان، اذ لاحقه الناس وانهالوا عليه ضربا لافتضاح امره عندهم بوصفه جاسوا وليس عالما[١٥].

المبحث الثاني

علاقة الرحالة بالاستعمار والتبشير

لما كانت رغبة الدول الاروبية السيطرة على دول المشرق وجدت نفسها في بداية الامر بحاجة الى التعرف والاطلاع على واقع تلك الدول، لذا فانها استعانت بكثير من الرحالة الذين جابوا الاقطار وقاموا برسم الخرائط اثناء ترحالهم وثبتوا الحدود بين الدول على تلك الخرائط، حتى صاروا مرجعا للحكومات الاوربية في هذا المجال، كما فعلت الحكومة البريطانية حين طلبت من الرحالة والمستشرق (الويس موسيل)(Alois Musil) وهو مستشرق نمساوي واستاذ جامعي واحد مشاهير الرحالة وقد اكتشف قصور بني امية الصحراوية [١٦] رسم وتثبيت الحدود بين مصر وفلسطين عام (١٩٠٦م)، حتى ان الحكومتان البريطانية والعثمانية اعتمدت هذا الترسيم فيما بعد، كما قامت الحكومة العثمانية بدعوته الى

اسطنبول للتفاوض والاتفاق معه عام (١٩١٠م) من اجل ان يقوم بمسح اجزاء اساسية من خط سكة حديد الحجاز الذي كانت الدولة العثمانية تخطط لانشاءه[١٧].

عملت الحكومات الغربية من اجل الوصول الى اسرار المناطق العربية على الاستعانة بشخصيات تكاد لا تكون مثيرة للريبة والشك من قِبل العرب، كما حصل في تكليف الرحالة الاسباني (دومينجو باديا ليبلش) وهو رحالة اسباني ولد سنة ١٧٦٧ في بيسكاي تنكر في الزي العربي ويدعي انه سليل العباسيين [١٨] ، الذي تم اختياره بعنايه شديدة من قِبَل مجموعة من الاشخاص البارزين في باريس ولندن، ليقوم برحلتين الى شبه الجزيرة العربية، فضلا عن زيارته لمصر وسوريا، وقد استطاع الوصول الى غايته من خلال ادعاءه بانه جاء لإداء مناسك الحج في رحلته الاولى، وبحجة الملاحظة العلمية في رحلته الثانية، ومما ساعده على تحقيق غايته انه كان مؤهلا تأهيلا جيدا حتى انه كان يجيد اللغة العربية، ومتقنا لاستعمال كثير من الدلالات والمصطلحات العربية ، وقدم نفسه باسم (علي بك العباسي) مدعيا بانه مسلم فعاش بمكة كأحد افرادها، واحاطه اهل مكة بالحفاوة والتكريم ومنحوه امتيازات غير عادية منها امتياز المشاركة في غسل الموتى، الحرية المطلقة في استخدام الآلات وتدوين الملاحظات[١٩]، على ان الهدف السياسي والاستعماري من رحلاته التي قام بها تبدلت فيما بعد خصوصا بعد ان انتقل الى المغرب، ليصبح توجهه علميا بحتا[٢٠].

ولم يقتصر الامر على الافراد بل هيأة الحكومات الاستعمارية – قيل انها فرنسية او اسبانية – حشود من الرجال والنساء الذين كان اغلبهم موظفين حكوميين او شخصيات سياسية، بل ان الكثير منهم كان اما عضوا في المجالس النيابية في بلدانهم او مستشارين لوزارات الخارجية فيها وتم ارسالهم نحو المشرق بصفة رحالة او مستكشفين، وقد لعب هؤلاء دورا مهما في تمكين الاستعمار الغربي في البلاد الاسلامية، مسخرين علمهم وامكاناتهم من اجل تهيئة الاجواء والنفوس لقبول الاستعمار والخضوع له لان الاستعمار الغربي هو بطبيعة الحال سياسة توسعية اتبعتها الدول الاوربية [٢١]، وانطلق هؤلاء الرحالة من مختلف العواصم الاوربية باتجاه المشرق الاسلامي وكانت عناوين وشعارات تلك الرحلات هي حب المغامرة والاستكشاف، في الوقت الذي كانوا فيه موفدين من قِبل الحكومات ولكل واحد منهم هدف محدد، فمنهم من كُلف بدراسة طبيعة الارض، ومنهم من ارسل لدراسة القبائل وما يتعلق بها من عادات وتقاليد ودراسة اوضاعها من جميع النواحي، ومنهم من ارسل للتقصي عن

الامكانات النفطية للدول والمناطق التي ينتشر فيها، ومنهم من ارسل لاغراض سياسية، ومنهم من ارسل من اجل اثارة الفتن الاضطرابات[٢٢].

ونظرا لما يتمتع بهِ بعض هؤلاء الرحالة المستشرقين من خبرة حضوا بمكانة كبيرة لدى الحكام العرب في تلك الفترة وقويت العلاقة بينهم، ولعبوا دورا عسكريا وسياسيا كبيرا في المراحل التاريخية المختلفة التي مرَّ بها الوطن العربي، وكانوا يتدخلون في بعضهم القرارات والمواقف السياسية التي تتخذها بلدانهم تجاه البلدان العربية، كما فعل الرحالة المستشرق (سانت جون فيلبي) St. John Bridger) Phillby) الذي يعد ابرز واهم رحالة في القرن العشرين كونه قد ساهم في لعب دور مهم في ازاحة الدولة العثمانية ، حيث عينته الحكومة البريطانية مساعدا للمندوب السامي البريطاني في العراق عام (١٩١٥م)، وكان له دور في سياسة بلاده في العراق بل انه اعترض على سياسة حكومته في العراق، ومن خلاله يتم ترشيخ الشخصيات المناسبة من اجل ان تقوم بريطانيا بالتعامل معهم كترشيحه للامير عبد العزيز ال سعود في المملكة العربية السعودية الذي وصفه بانه الشخص الذي يستحق ان تتعامل معه بريطانيا؛ لانه الاجدر على قيادة العرب في الحجاز[٢٣].

وكان (ديفيد جورج هوجارث) ممثل للمندوب السامي البريطاني في مصر من ابرز المخططين للثورة العربية الكبرى عام (١٩١٦م)، وقد استطاع ان يلعب دورا مهما في اقناع الشريف حسين على ان الحكومة البريطانية لن توافق على استيطان يهودي يتعارض مع استقلال العرب كما جاء ذلك بتصريح بلفور من خلال استخدامه اسلوب المراوغة السياسية وايهامه [٢٤]، وكذلك ما قام به (لويس بلي) المقيم السياسي البريطاني في منطقة الخليج العربي عام (١٨٦٥م) ولد سنة (١٨٢٥) رحل الى الرياض من اجل ايجاد تفاهم بين بريطانيا من جهة وبين زعيم الحجاز فيصل بن تركي من جهة اخرى[٢٥].

ويبدو ان الاطماع الشخصية للرحالة قد لعبت دورا كبيرا ومهما في عملهم التجسسي؛ من خلال ما قام بهِ بعض الرحالة من عمليات التجسس لصالح دولتين في وقت واحد كما فعل (بالغريف) الرحالة البريطاني الذي لم يكتفِ بخدمة مصالح الحكومة البريطانية، فقام وبصورة سرية بعقد اتفاقا مع الفرنسيين من اجل تقديم كل ما يحتاجون اليه من المعلومات، ومما قام بهِ في هذا المجال رفع تقريرا مفصلا للحكومة الفرنسية يتضمن امكانية مهاجمة سوريا عن طريق مصر ومن ثمَّ توحيد البلدين تحت السيادة الفرنسية[٢٦].

لم يكن التبشير بعيدا عن مهام الرحالة والمستشرقين، فإلى جانب خدمتهم للاستعمار لعبوا دورا كبيرا فيه، والتبشير تعبير اطلقه رجال الكنيسة النصرانية على الاعمال التي يقوم بها النصارى منهم من اجل تنصير الشعوب غير النصرانية، ثمَّ اخذ هذا الهدف يتحول صوب المسلمين؛ فجعل الشعوب المسلمة ميدانا لنشاطاته في محاولة منهم لإخراج الشعوب المسلمة عن دينهم، بل وصل الامر لأكثر من ذلك من خلال عملهم على انشاء جيل لا يؤمن بالاسلام واخراجهم منه ، وقد جند المبشرون انفسهم للقيام بمهمات التبشير مستخدمين من اجل تحقيق هذه الغاية شتى الطرق والوسائل(٢٧).

وبالرغم من ان بدايات هؤلاء المبشرين كانت عبارة عن جهد فردي خصوصا في رحلتهم الاولى والتي تعد رحلة استطلاعية، الا انه يتم تبنيهم من قبل الحكومات لترسلهم في رحلات اخرى من اجل القيام بمهام مختلفة وحسب الاهداف التي تريد تلك الحكومات الاوربية من الوصول اليها، ومن ابرز واقدم الرحالة في هذا المجال هو (ويليام جيفورد بلغريف) وهو من عائلة يهودية حولت ديانتها الى النصرانية، خدم في الجيش البريطاني في الهند الا انه استقال منه ليصبح راهبا فانضم الى جماعة يسوع ويسوع هو نبي من انبياء الله بعث لبني اسرائيل وقد ذكر في القران باسم عيسى والمسيح وبدا بدراسة علم اللاهوت (وهو علم الذي يتحدث عن الله وطبيعته وصفاته ومعاملاته مع البشر وذلك حسب ما جاء في الكتاب المقدس) ؛ في جامعات اوربا حتى عام (١٨٥٧م)، ثمَّ انتقل الى لبنان ليقوم بالاعمال التبشيرية لصالح جماعته الدينية وبدا يتنقل بين لبنان وسوريا داعيا للنصرانية بين العرب، فضلا عن تأسيسه لمدارس تمثل جماعته الدينية في لبنان واصبح مسؤولا عليها(٢٨)، ولم يكتفِ بالنجاح الذي حققه في هذا المجال بل قام بالسفر الى اوربا من اجل القاء المحاضرات عن الاعمال التبشيرية في الشرق، فذهب الى فرنسا وبدا يعرض فكرة العمل على تحويل سكان المناطق غير المعروفة في شمال شبه الجزيرة العربية الى النصرانية، وتمَّ عرض الفكرة على الحكومة الفرنسية التي رحبت بها اشدَّ الترحيب؛ وذلك لمجموعة من الاسباب من ابرزها اهميتها من الجانب السياسي فالوجود النصراني في شمال شبه الجزيرة العربية سيسهل على فرنسا ايجاد موطا قدم لها في بلاد العرب الشرقية، ما دفع الحكومة الفرنسية الى تمويل تلك الرحلة التي انطلقت الى القاهرة من اجل تحقيق مصالح دينية وسياسية في ان واحد وقد

تسمى (بلغريف) باسم (سليم ابو محمود الياس) وتسمى رفيقه باسم (بركات الشامي) مدعيا كلاهما بانهما طبيبان من سوريا[٢٩].

وقد تمادى المبشرون في استغلال وجودهم في الاراضي العربية خصوصا بعد تثبيت وجودهم فيهان فصاروا يتدخلون في السياسات الخاصة بتلك البلدان ويحدثون فيها الاضطرابات، كما حدث في مصر ما جعل الخديوي اسماعيل باشا (وهو من اسرة محمد علي باشا وهو اول من اطلق عليه لقب الخديوي من اسرة محمد علي باشا) [٣٠] يأمر بغلق مدارس المبشرين البروتستانت ؛ لانهم كانوا يتدخلون في السياسية ويثيرون الاضطرابات في البلاد، ويزيدون من مشاكل الحكومة، الا ان هؤلاء قاموا باللجوء الى قنصلياتهم للاستعانة بها فتدخلت قنصليات بلدانهم ودافعت عنهم والزمت الحكومة المصرية بالالتزام بالدستور الذي ينص على احترام الحرية الدينية، على الرغم من ان الحرية الدينية لا تتعارض مع موجود مدارس تثير الاضطرابات والفتن في البلاد[٣١].

اقسام العمل التبشيري :

ينقسم العمل التبشيري الى عدة اقسام، هي:

اولا. التبشير بين الجماعات: وهذا يحدث في المستشفيات، والمدارس، والندوات الدينية، وكانت المستشفيات ارضا خصبة للتبشير خصوصا وان المسلم هو من يحتاج الى خدمة الطبيب الذي هو في الاصل مبشر ليستغل وضعه ويبدا بعرض التنصر عليه وهي مهمته الاساسية، وفي ذلك يقول احد اطباء الارساليات التبشيرية في المغرب: يجب على طبيب الارسالية التبشيرية الا ينسى ابدا لحظة واحدة انه مبشر قبل كل شيء، ثمَّ هو طبيب بعد ذلك[٣٢].

ثانيا. التبشير مع الفرد الواحد: ويعد ذلك من المهام الصعبة التي تحتاج الى مثابرة وصبر واستعداد بالترحاب بالضيف، واظهار كل امكانيات الود والصداقة حتى يانس اليه الفرد ويثق بهِ، من ثمَّ يقوم المبشر باستخدامه كما يشاء، لدرجة ان الشخص الذي استماله المبشر ينتقل الى النصرانية طوعا واختيارا.

ثالثا. العمل التبشيري الصامت: ويكون من خلال توزيع الكتب الدينية، والنشرات، والصور وغيرها. [٣٣].

وحين رأي كبار المبشرون النتائج التي جاءت بها حركة التبشير دعوا الى عقد مؤتمر تبشيري لجميع الارساليات التبشيرية البروتستانية للتفكير في مسالة نشر (الانجيل) بين المسلمين وكان اول من دعى لهذا المؤتمر القس (زويمر) وهو رئيس المبشرين تولى تحرير مجلة عالم الاسلام [٣٤] في الشرق الاوسط سنة (١٩٠٦م) وكان هذا المؤتمر في الهند، وعقد في نفس السنة مؤتمر اخر للمبشرين في مصر ضم (٦٢) رجلا وامراة ممثلين عن جميع الارساليات الموجودة في البلدان الاسلامية من ارساليات امريكية، وفرنسية، وهولندية، وانكليزية، وغيرها[٣٥].

المبحث الثالث

الاستشراق ودور الرحالة فيه

قبل ان نتعرف على المهام المناطة بالمستشرقين لابد لنا ان نعرف بدايةً ما هو الاستشراق لنتوصل من خلال ذلك الى المهام التي اخذ الاستشراق على عاتقه تنفيذها ومنها الاستعمار، ويمكن تحديد الاستشراق بثلاث مفاهيم وهي:

المفهوم الاول: المعنى الاكاديمي: ويطلق على كل من يتخصص في احد فروع المعرفة المتصلة بالشرق من قريب او من بعيد، لذا فقد اطلقت هذه الكلمة على دارس الآداب الشرقية او اللغات الشرقية او المتخصص في تاريخ احدى الدول الشرقية[٣٦]، ولقد كانت كثير من الرحلات مفتاحا لرحلات اخرى كان لها الاثر الكبير في الاستكشافات العلمية والجغرافية مثل الرحلة العلمية التي ارسلها ملك الدنمارك فردريك الخامس عام (١٧٦٣م)، التي كانت المفتاح الذي فتح الباب للارتياد العلمي المنظم للاوربيين بالتوجه الى الشرق الاسلامي[٣٧].

المفهوم الثاني: وهو المفهوم العرقي: وهو اعتبار الاستشراق اسلوبا للتفكير يرتكز على التمييز الثقافي والعقلي والتاريخي والعرقي بين الشرق والغرب[٣٨]، وقد ادى هذا المفهوم العرقي بعدد كبير من الكتاب والفلاسفة والسياسيين بل وحتى الاقتصاديين، ورجال الحكم والادارة ايام الاستعمار الى ان يتقبلوا فكرة التمييز بين الشرق والغرب، كنقطة انطلاق لإقامة نظرياتهم وكتاباتهم الاجتماعية، ودراساتهم المختلفة عن النمو الاقتصادي للشرق، وافكارهم الخاصة الشعوب الشرقية ومصائرها[٣٩].

المفهوم الثالث: مطلب استعماري: وهو الاسلوب المستخدم لفهم الشرق من اجل السيطرة عليه، ومحاولة اعادة تنظيمه وتوجيهه والتحكم فيه، وهذا المفهوم هو الذي فضح

الاستشراق؛ حيث اصبح اداة ووسيلة للاستعمار ومن اجل ذلك احتل الاستشراق مكانة هامة بين مختلف مجالات العلم والمعرفة لدى الاستعمار وميول الغرب الاستغلالية، وقد ساهم بشكل جدي في توسيع الصراع بين الغرب والشرق وزج الاسلام في حلبة الصراع، وعليه تقع مسؤولية توتر العلاقات بين الشرق والغرب، وتقديم الاسلام مشوها الى اوربا[٤٠].

عمل المستشرقون منذ البداية على اتخاذ مجموعة من الاساليب من اجل تحقيق ماربهم في الدول العربية والاسلامية، وعلى الرغم من رغبتهم في اخفاء مقاصدهم خلف عناوين مختلفة هي في ظاهر الامر تدعوا الى الانفتاح وتبادل الثقافات والمعرفة، الا ان النزعة الاستعمارية والرغبة في السيطرة على الشعوب وما يمتلكونه من موارد واضحة فيما يقومون، ومن تلك الاساليب:

اولا. التخفي وراء كل ما هو حسن؛ من اجل ايقاع الناس في الفخ حتى اذا تمكنوا منهم ضيقوا عليهم وجعلوهم اسرى فكريا، ومعنويا، ونفسيا، من اجل هدم الاسلام في عقائده، وعباداته، ونظمه، واخلاقه، من خلال التشكيك بالحق والقاء الشبهات، من مغالطات جدلية تعتمد على الاكاذيب والتزييف، وتلبيس الحق بالباطل.

ثانيا. تجزئة المسلمين اينما كانوا في الارض والعمل على جعلهم اشتات متنافرين متقاطعين لا تؤلف بين قلوبهم مودة ولا تربطهم اواصر دينية، او تاريخية، او مصلحة مشتركة، من خلال احياء القوميات القديمة وتراثها وتاريخها الجاهلي، واحياء نعراتها القومية، وعصبيتها العرقية.

ثالثا. تشويه صورة الامة الاسلامية وتاريخ هذه الامة بكل وسيلة من وسائل الكذب والافتراء، والتزوير للحقائق، من اجل حقن احفاد المسلمين وجيل الامة الحالي بالشعور بالنقص والتخلف لجعله اداة طيعة بيد المستعمرين واعداء الاسلام.

رابعا. خداع الشعوب الاسلامية، بربط كل صورة من صور التقدم الحضاري والمدني بخطة هدم الاسلام وتجزئة المسلمين، وبربط كل صورة من صور التخلف الحضاري والمدني بالاستمساك بالاسلام، وبالمفاهيم والمعارف التي يحملها علماء المسلمين[٤١].

وقد ساعد ذلك الدول الاستعمارية التي هي بالاصل بحاجة من اجل الوصول الى تحقيق اهدافها الاستعمارية الى تخطي مرحلتين مهمتين وهما:

المرحلة الاولى: وهي مرحلة الاعداد التي كان المستعمرون خلالها بحاجة كبيرة الى معرفة المزيد من المعلومات عن العالم الاسلامي مثل جغرافيته، مكامن قوته، نقاط ضعفه، شعوبه، لغاته الى غير ذلك من المعلومات عن البلدان التي يسعى المستعمرون الى احتلالها؛ من اجل احكام الخطط الناجحة التي يمكن من خلالها تحقيق اغراضه العدوانية والاستعمارية، وقد برز دور الاستشراق ليكون بمثابة دليل طريق للاستعمار، ومثال ذلك ما قام به المستشرق (ادوارد لين) وهو مستشرق انكليزي قدم الى مصر وعاش بها وانكب على تعلم اللغة العربية لغةً وحديثا، وبدا بدراسة الحياة الاجتماعية في القاهرة وعاش عيشة المصريين حتى لقبه اصدقاءه منصور افندي وذلك عام (١٨٢٥-١٨٣٥م) وقد كان كتابه (اخلاق وعادات المصريين المعاصرة) كخارطة استعان بها كل من اراد الغزو والاحتلال من اجل التعرف على البلاد قبل غزوها[٤٢].

المرحلة الثانية: وهي مرحلة الاستيلاء الفعلي على البلاد الاسلامية، فقد احتاج الاستعمار الى تثبيت اقدامه وتبرير سياسته الاستعمارية، وحماية نفوذه ومصالحه في البلاد الاسلامية ولا ياتي ذلك الا من خلال دراسة بواعث القوة لدى المسلمين وشلها، ومعرفة نقاط الضعف لاستغلالها، وهنا يبرز دور الاستشراق ليأخذ على عاتقه القيام بدراسة مستفيضة عن البلدان الاسلامية وتقديم النصائح المناسبة لإرباب الاستعمار الذين حرصوا على مساعدة المستشرقين وتذليل العقبات امامهم وبذلك يكون الاستعمار قد تبنى الحركة الاستشراقية[٤٣] التي تنوعت ميادينها وكان لميدان دراسة الاسلام الحصة الاكبر من بينها انطلاقا من نزعتين رئيسيتين وهي تمكين الاستعمار الغربي في البلاد العربية والاسلامية، وتهيئة النفوس بين سكان هذه البلاد لقبول النفوذ الاوربي والرضا فيه من خلال اضعاف القيم الاسلامية وتمجيد القيم المسيحية الغربية، وبدافع الروح الصليبية التي اهتمت بدراسة الاسلام والنيل منه متخفية بثوب البحث العلمي[٤٤].

ويجسد لنا الرحالة البريطاني (ريتشرد فرنسس بورتن) (Richard Francis) Burton (مستشرق انكليزي رحالة ولد في (هرتفورد شاير) وكان والده (جوزيف نيترفيل بورتن) ضابطا في الجيش البريطاني، وجده (ادورد بورتن) قسيسا في ايرلندة وتعلم ريتشرد مبادئ اللاهوت في اكسفورد) [٤٥]مدى العلاقة بينهم وبين الحكومات الاوربية الاستعمارية التي كان الرحالة يعرضون خدماتهم عليها من خلال تقديم معلومات قيمة تساعد تلك

الحكومات في تحقيق اطماعها الاستعمارية، فقال: (عرضت خدماتي على الجمعية الجغرافية بلندن في خريف ١٨٥٢م من اجل ان ازيل عن الكشوف الحديثة الوصمة التي لحقت بها في وجود مساحات واسعة بيضاء لا معلومات عنها في خرائطنا، لا نزال نشير لها بالمناطق الشرقية والوسطى من شبه جزيرة العرب)[٤٦].

وعلى الرغم من الدور الكبير والمهم الذي لعبه الرحالة المستشرقون في خدمة الاستعمار من خلال تلك الرحلات ذات الداوفع الاستعمارية والتجسسية التي صار من الصعب احصاءها، الا انه وبنفس الوقت كان لتلك الرحلات دورا مهما في الاكتشافات الاثرية المهمة في الوطن العربي بصورة عامة ومن تلك الرحلات هي التي قام بها الرحالة السويسري لودفيج بركخارديت عام (١٨١٤م) حيث اكتشف كثير من الاثار الموجود في المنطقة الشمالية للجزيرة العربية والتي تعرف بالصخرية اهمها التعرف على مدينة البتراء عاصمة مملكة الانباط، ولم يكتف هذا الرحالة بهذا القدر فقد دفعه حبه لهذه المنطقة الى اعتناق الاسلام وحرص على التفقه بالشريعة واطلق على نفسه الشيخ ابراهيم[٤٧]، اذ كان السفر في منتصف القرن الثامن عشر متعة الذين يسافرون والذين لا يسافرون، وكانت الاستطلاعات الجغرافية آنذاك شبيهة بالفضول الفضائي اليوم، بل لم يكن من الصعب العثور على من يمول رحلة استكشافية حسنة التخطيط[٤٨].

رحالة ام جواسيس

شهدت بدايات القرن العشرين حتى اكتمال عملية تجزئة المشرق العربي في عشرينيات هذا القرن هجمة استخبارية ابطالها رجال ونساء يعملون لصالح الاستخبارات الالمانية، والبريطانية، والفرنسية، بمناطق نفوذ الدولة العثمانية؛ في محاولة لتهياة الاوضاع لخلافتها وكانت تلك المهام تناط بهؤلاء حسب الحاجة التي تراها حكوماتهم فمنهم من يزاول نشاطه ضمن منطقه معينة ومنهم من يتنقل من منطقة الى اخرى من اجل انجاز تلك المهام الاستخبارية[٤٩].

وسنحاول ان نسلط الضوء على نموذجين من الرحالة الغربيين الذين كانوا يستخفون بعنوان الرحالة والاستكشاف من اجل تحقيق الاهداف الموكلة اليهم من حكوماتهم المختلفة، وعندما نقول مصطلح الاستخفاف فانهم يبعدون هذا المصطلح عنهم ، لان غاياتهم الاستعمارية تتعارض مع هذا المصطلح وقد كان لهؤلاء دور بارز في الحياة السياسية،

والاجتماعية، والعسكرية، والاقتصادية في البلدان العربية، بل انهم استطاعوا من تغيير مجرى التاريخ من خلال ما قدموه من مساعدة للحكومات الاوربية الاستعمارية سواء كان ذلك من خلال المعلومات التي يتم تقديمها لتلك الحكومات، الامر الذي دفع كثير من الحكومات الاوربية الى تأسيس مجموعة من المكاتب الاستشراقية التي اخذت على عاتقها الاشراف على هؤلاء الرحالة كان يديرها مجموعة من ضباط المخابرات مثل المكتب العربي في القاهرة اذ تحول المكتب الى مركز للنشاط الجاسوسي والسياسي والتخريبي في المنطقة، كذلك المكتب الذي تم تأسيسه في البصرة والذي اصبح كذلك مركزا لإدارة المصالح الجاسوسية للحكومة البريطانية في المنطقة[٥٠]، ومن هؤلاء:

لورانس

ولد توماس ادوارد لورانس سنة (١٨٨٨م)، في ايرلندا ثمَّ انتقلت اسرته الى مقاطعة ويلز، التحق بجامعة اكسفورد في تخصص علم الاثار واستطاع ان يتميز على اقرانه في تسجيل كثير من الاكتشافات الاثرية لصالحه[٥١]، ما جعله يكون ضمن رحلة عالم الاثار الرحلة الاستكشافية لعالم الاثار (هوجارث) الى الشرق، فوصل لورانس الاراضي العربية في العام (١٩٠٩م) على ظهر سفينة رست في بور سعيد ومنها انتقل الى الشام، وبعد الانتهاء من هذهِ الرحلة عاد الى اوربا ليأتي مرة اخرى الى الشرق ولكن عنوان هذه الرحلة لم يكن كما كانت في السابق وهو التنقيب والاستشكاف بل كان عنوانا سياسيا داعب مشاعر العرب التي ربما اطلع عليها خلال رحلته السابقة فقد جاء هذه المرة تحت عنوان مساعدة العرب ضد الاتراك الا ان الامر كان مساعدة الحلفاء في الحرب ضد الاتراك[٥٢]، الا ان المهمة التي اوكلت الى لورانس هي وضع الخرائط عن شبه جزيرة سيناء بعد ان يتوغل فيها متخفيا وكان معه في هذه الرحلة القائد (نيوكومب) وقد استطاعا من وضع الخرائط الدقيقة للمنطقة ورفعوا تقريرهم الذي حمل عنوان (صحاري زن) الى الحكومة البريطانية الذي طبع على شكل كتاب في جامعة اكسفورد[٥٣]، واستمر لورانس في تقديم المساعدة للجيش والحكومة البريطانية من خلال وضع الخرائط حتى تم تعيينه في دائرة الخرائط التابعة لرئاسة القوات البريطانية في الشرق الاوسط، وكان قد تعرف على جميع الاماكن الاستراتيجية الموجودة في المنطقة من خلال تجواله في المنطقة وتسجيل مشاهداته اليومية، وبسبب نشاطه الاستخباراتي تم نقله

من دائرة الخرائط الى دائرة المخابرات السرية التي كان عملها ينحصر في المناطق الواقعة تحت سيطرة الدولة العثمانية[٥٤].

لعب لورانس دورا كبيرا في الثورة العربية الكبرى التي قام بها العرب ضد الدولة العثمانية معلنين انضمامهم الى معسكر المملكة البريطانية، وقد استطاع من خلال خبرته في التعامل مع العرب، ولغته العربية، وخبرته الجاسوسية ان يستميل العرب ويتزعمهم في مقاتلة القوات العثمانية في المنطقة متخذا طريقة حرب العصابات التي كان ناجحا فيها لدرايته بطرق الصحراء ومناطقها، حتى انه استخدم هذه الامكانيات في التمرد على رؤساءه في بعض الاحيان[٥٥].

ان وقوف لورانس الى جانب العرب في ثورتهم ضد الدولة العثمانية لم يكن من اجل تخليصهم منها لينالوا الاستقلال كما ادعى؛ لان ما عمله لورانس من خلال توظيف العرب تحت هذا العنوان كان خدمة للمصالح البريطانية في المنطقة ومنذ الايام الاولى للحرب العالمية عام (١٩١٤م)، من خلال التصدي والوقوف بوجه المصالح الفرنسية في المنطقة مقنعا العرب من خلال مراسلاته مع شريف مكة (الشريف حسين) بان يقوموا بالهجوم على دمشق والسيطرة عليها؛ لان ذلك يضمن وصول القوات البريطانية الى دمشق بكل سهولة واحتلالها قبل وصول القوات الفرنسية اليها[٥٦].

فارتيما

وهو الرحالة لودوفيكو دي فارتيما او الحاج (يونس المصري) كما سمى نفسه، كان فارتيما ايطالي الاصل ويعمل لصالح البرتغال، زار كثير من البلدان العربية، والخليج العربي، وبلاد فارس، والهند، واندونيسيا، كان يقدم نفسه في كل مرة بشكل مختلف فقدم نفسه في بلاد الحجاز على انه (يونس المصري) وفي بلاد فارس (يونس المملوك المصري)، اما في الهند فكان الامر مختلف؛ اذ قدم نفسه باسم (يونس الفارسي)، ومن خلال قدرته في تغيير شخصيته استطاع ان يتغلغل في المجتمعات الاسلامي والتجسس عليها لدرجة انه استطاع ان يحصي عدد الاسر في مكة، وقد احصاهم بانهم (٦٠٠٠) اسرة[٥٧]، كما استطاع من خلال ذلك التجول في الموانئ، والمعسكرات، ورصد الاستعدادات العسكرية للدولة العثمانية، وقدم كل تلك المعلومات لنائب الملك البرتغالي في الهند[٥٨].

ليون روش

ولد ليون روش في فرنسا عام (١٨٠٩م)، واستطاع ان يدخل معهد الحقوق الا ان لم يكمل دراسته فيه، وبدا يزاول نشاطات تجارية واعمال حرة، كان ابوه ملحقا عسكريا للقوات الفرنسية التي شاركت في احتلال الجزائر، كما كان يمارس النشاط الزراعي فيها مما جعله يستدعي ابنه ليون من فرنسا من اجل مساعدته، وقد لبى دعوة والده فقدم الى الجزائر سنة (١٨٣٢م)، وقد استطاع ليون من التأقلم مع البيئة الجديدة، وان يتعلم العربية وبدا يختلط بالأهالي، الا انه وبنفس الوقت كان يخرج مع مجموعة من الضباط الفرنسيين الى رحلات الصيد، ومن خلال تلك الرحلات وعلاقات والده تم تعيينه ملازما في فرقة الفرسان الخيالة التي ترافق احد الجنرالات الفرنسيين في تجواله[٥٩]، وبسبب اتقانه اللغة العربية استطاع ان يكون حلقة بين الجيش الفرنسي والاهالي الذين وقع بحب واحدة من فتياتهم واسمها (خديجة) وهي فتاة جزائرية مسلمة تعرف عليها من خلال احدى النساء التي تملك مقاطعة زراعية بجانب المقاطعة التي يملكها والده، ومنذ ذلك الوقت تولدت لدى ليون روش قناعة في تعلم اللغة العربية بصورة افضل مما كان عليها؛ ليسهل عليه التواصل مع عشيقته من جهة وللتواصل مع عمال مزرعة والده من جهة اخرى[٦٠]، بل ان الامر كان اكبر من ذلك من خلال مشاركة ليون روش في المفاوضات التي دارت بين الفرنسيين والامير عبد القادر الجزائري بصفة مترجم والتي نتج عنها توقيع معاهدة تافنا (سنة ١٨٣٧م) والتي نصت على سيطرة الامير عبد القادر الجزائري على الاراضي الجزائرية عدا المنطقة الساحلية[٦١]، فضلا عن اعطاء الحرية للجزائريين المسلمين بالانتقال والعيش ضمن الاراضي التي تسيطر عليها فرنسا وكذلك اعطت الحق للفرنسيين في الانتقال والعيش ضمن الاراضي التي يسيطر عليها الامير بعد القادر الجزائري[٦٢]، ومن هنا تولدت لدى ليون روش الرغبة في الانتقال الى معسكر الامير عبد القادر الجزائري الذي رحب بهِ وارسله الى من يعلمه تعاليم الاسلام بعد ان اعلن اسلامه بل قام الامير بتزويجه من فتاة جزائرية مسلمة، وبذلك اصبح ليون روش من المقربين للامير عبد القادر الجزائري وكاتبه الخاص وقد لازمه في جميع تنقلاته وحروبه التي خاضها من اجل القضاء على الفتن الداخلية[٦٣].

يبدو ان الامير عبد القادر الجزائري اعجب بشخصية ليون روش وقام بالاستعانة بهِ، وكان يطلع على الشؤون الاوربية من خلاله، وقد ساهم في جلب الميثاق الدستوري للامير من

فرنسا الذي حاول من خلاله فهم النظام السياسي ومن اجل ان يوظف ذلك في حربه السياسية ضد الفرنسيين، فضلا عن دوره في جعل الامير عبد القادر الجزائري يشترك في كثير من الجرائد[٦٤].

ومن اجل ان تعرف فرنسا ما يرتب له الامير عبد القادر ارسلت وفدا من اجل لقاء الامير عبد القادر الجزائري، والاطلاع سِرا على اوضاعه وتجهيزاته العسكرية ومدى استعداده، وكان ظاهر هذا الوفد غير عسكري وغير سياسي، فهو مؤلف من "علماء" وشخصيات مدنية مهتمة بالطب والفن والقانون، الا ان الواقع يشير الى ان هذا الوفد كان مؤلف من مجموعة من (الشخصيات الاستخباراتية) والجواسيس مثل بيربروجير –مؤلف هذا الكتاب– والذي كان سياسيا، وعالما، وجاسوسا، ومستشرقا من الدرجة الاولى[٦٥]، وبالفعل فان الوفد استطاع اللقاء بالامير عبد القادر، الا ان اللافت للنظر هو اقدام هذا الوفد على ان يطلب من الامير عبد القادر بالسماح لليون روش بالعودة معهم الى فرنسا بحجة ان والده يعيش بحالة صحية سيئة بعد فراقه، الا ان الامير رفض طلبهم في ارجاع ليون روش اليهم؛ خصوصا بعد ما اسلم وخُتن وسمي باسم (عمر)، وقد راى الامير عبد القادر ان في تسليم رجل مسلم او دعوته للتخلي عندي دينه والعودة للنصرانية خيانة لله (سبحانه وتعالى)[٦٦].

لقد كان طلب ارجاع ليون لفرنسا بمثابة التزكية له عند الامير عبد القادر الذي زاد تمسكه بهِ؛ بعد ان وجده راغبا بالبقاء معه وانه جاء برغبة منه ودخل في الاسلام بنفس تلك الرغبة، وبذلك مهدت هذه المجموعة المزيفة من الرحالة الطريق امام ليون ليلعب دورا بارزا في كل ما يقوم بهِ الامير، مما اعطاه حرية القيام بإعماله الجاسوسية بكل سهولة دون ان يكون تحت المراقبة او ان يكون شخصا مشتبها بهِ، فتم تكليفه بمهام اخرى الى جانب مهامه الجاسوسية، كمهمة اضعاف قوة الامير عبد القادر والتأثير على عزيمة المسلمين في الجهاد ضد الفرنسيين[٦٧].

لم تدم العلاقة بين الامير عبد القادر وليون روش طويلا فقد وصلا الى مفترق الطرق؛ بعد ان اراد الامير عبد القادر ان يقوم بالهجوم على احدى مقرات الفرنسيين وطلب من ليون روش مرافقته في هذه الحملة الا انه تردد وامتنع، وقد اغضب ذلك الامير عبد القادر الذي قال له: (جزاؤك في الاسلام جزاء المرتدين، لكنني اترك معاقبتك لله)[٦٨].

وجد ليون روش نفسه في غير معسكر الامير عبد القادر، لذا قرر الهرب الى فرنسا حاملا معه كل المعلومات التي اكتسبها عن جيش الامير عبد القادر الجزائري واسراره، وامكاناته العسكرية وتجهيزاته، في وقت كانت فرنسا تعج بالمستشرقين الذين ما ان وصل ليون اليهم حتى انضم الى موظفي الدولة الفرنسية(٦٩).

جدد نشاطه الاستخباري والجاسوسي مستغلا علاقاته الواسعة في الجزائر وليبيا حين كان الساعد الايمن للامير عبد القادر فقرر التواصل مع احدى الفرق الدينية الصوفية وهي الفرقة (التيجانية)؛ وهي فرقة صوفية اسسها ابو العباس احمد بن محمد التيجاني المولود سنة ١١٥٠ هـ وقد زادو عن الصوفية بانهم يرون الرسول صلى الله عليه وسلم في الدنيا يقظة كما قال جدهم بنه رأي الرسول واعطاه وردا من الاستغفار (٧٠) ، من اجل اصدار فتوى تبيح لمسلمي الجزائر العيش تحت الحكم الفرنسي اذا احترمت مؤسساتهم الدينية والقضائية، ودعوتهم الى ترك الجهاد الذي يعد القاء النفس الى التهلكة، وقاموا بتوزيع هذه الفتوى على القبائل وشاعت اخبارها في البلاد ولاقت اعجاب الكثير من العامة الذين كانوا يفضلون الراحة على الجهاد خصوصا وان الفتوى استطاع ليون روش –الحاج عمر– كما يسميه الناس من الحصول على دعم وتاييد لها من خلال ذهابه الى مكة المكرمة(٧١).

وبذلك فان فرنسا قد اعدت فصول المخطط على اتم وجه، من خلال اختيار الزمان الذي ارسلت فيه ليون روش الى معسكر الامير عبد القادر مدعيا رغبته في الدخول الى الاسلام، وصولا بفرق الجواسيس التي كانت تدعي بانها مجموعة من العلماء التي رسخت القناعة بان ليون روش جاء الى الامير بمحض ارادته مما زاد تمسكه بهِ وجعله مساعدا للامير مستغلا بذلك تلك المكانة في تسهيل مهامه الجاسوسية من خلال الاطلاع على المجتمع الجزائري وتحديد نقاط الضعف والقوة فيه، واستغلال العامة في تحقيق الهدف الذي جاء من اجله في القضاء على المقاومة الجزائرية بقيادة الامير عبد القادر الجزائري.

النتائج

وصلنا الى نهاية هذا البحث المتواضع الذي حاولنا ان نسلط الضوء من خلاله على العلاقة بين الوجوه الثلاثة للمصالح الغربية وهي الاستعمار والاستشراق والرحلة التي كانت الغطاء الذي يتم تنفيذ جميع المخططات الاستخبارية والتجسسية من خلالها، وقد توصلنا من خلال هذا البحث الى:

اولا. كان الاستشراق وما زال يمثل سلاحا خطيرا بيد الدول الاوربية وهو غير منتهي الصلاحية؛ اذ يمكن تفعيله في كل زمان ومكان من اجل النيل من الدين الاسلامي والمسلمين.

ثانيا. العلاقة الوثيقة ما بين الدول الاستعمارية في ان اهدافها ومصالحها واحدةً سواء اكانت دينية او اقتصادية او اجتماعية وغيرها ، والتي بالنهاية هي ضربة ارادوا من خلالها اضعاف عقيدة الاسلام في الدول العربية والاسلامية التي بثوا فيها سمومهم بما يعرف بالمستشرقين ورحلاتهم .

ثالثا. ضعف الدور العربي الاسلامي وعدم اخذ الحيطة والحذر وعدم الارتياب من الاشخاص غير العرب فسح المجال لكثير من الجواسيس في ان يجعلوا المنطقة العربية ميدانا لنشاطاتهم.

رابعا. التخلف العلمي الذي يعد واحدا من ابرز الاسباب التي جرات الدول الاستعمارية على اتخاذ الحجج والذرائع من اجل الوصول الى الاراضي العربية والتنقل بها بكل حرية بحجة التنقيب عن الاثار، فضلا عن فتح المستشفيات والمراكز التعليمية التي تم استغلالها كمنابر للتبشير والتنصير.

خامسا. على الرغم من كون اغلب الرحلات كانت بدوافع استعمارية او لتحقيق منافع ومصالح اقتصادية الا ان هناك الكثير من تلك الرحلات التي كان لها الاثر في اكتشافات غاية في الاهمية في البلدان العربية والاسلامية.

التوصيات :

١. تفعيل الدور الرقابي على المؤسسات داخل البلدان الاسلامية من قبل هيئات تختص في مراقبة هؤلاء المستشرقين ، وتاخذ هذه الهيئات مراقبة النتاج الفكري لهؤلاء المستشرقين وتجمعاتهم داخل هذه البلدان .
٢. تشكيل نخبة من الاساتذة الجامعيين ممن يحملون مراتب علمية بدرجة (بروف) لمراقبة جميع نشاطات المستشرقين او من ياتي بصفة زائر الى الجامعات او المؤسسات ومراقبة النتاج الفكري لهؤلاء .
٣. دعم النخب الجامعية من اصحاب الفكر الاسلامي المعتدل وتزويدهم بكافة احتياجاتهم في التاليف واستخراج عصارة جهودهم الفكرية للرد على المؤلفات

الاستشراقية والبحث عن الطعون الموجودة فيها والرد عليها وفق القران والسنة النبوية الصحيحة .

الاحالات

(١) ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل، (ت:٤٥٨هـ)، المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هنداوي، ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت، ١٤٢١ هـ/٢٠٠٠م)، ٣٠٢/٣.

(٢) ابن منظور، ابو الفضل محمد بن مكرم بن علي، (ت: ٧١١هـ)، لسان العرب، ط٣، دار صادر، (بيروت، ١٤١٤هـ)،٢٧٩/١١.

(٣) سورة قريش، آية: (٢).

(٤) محمدين، محمد محمود، المدخل إلى علم الجغرافيا والبيئة، ط٤، دار المريخ، (لا.مك، لا.ت)، ص٤٥.

(٥) دوزي، رينهارت بيتر، تكملة المعاجم العربية، ترجمة: محمد سليم النعيمي، ط١، وزارة الثقافة والأعلام، (العراق، ٢٠٠٠م)، ٢٤/١.

(٦) السلمي، حورية عبد الآله سعيد، كتابات الرحالة الأوربيين مصدراً للتاريخ الحضاري للمدينة المنورة، أطروحة دكتوراه، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، (١٤٣٤هـ/٢٠١٣م)، ص٣٠.

(٧) عوض، محمد مؤنس، الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ط١، مكتبة مدبولي، (القاهرة، ١٩٩٢م)، ص١٧.

(٨) هوجارث، ديفيد جورج، اختراق الجزيرة العربية، ترجمة: صبري محمد حسن، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، (القاهرة، ٢٠٠٥)، ص١٤.

(٩) الزركلي : خير الدين بن محمود بن محمد بن علي (المتوفى: ١٣٩٦هـ) ، الاعلام ، ط١٥ ، دار العلم للملايين / بيروت ، ٢٠٠٢ ، ج٨ ، ص٢٦٤

(١٠) مقار، نسيم، الرحالة الأجانب في السودان، ط١، مركز الدراسات السودانية، (القاهرة، ١٩٩٥م)، ص٣٩.

(١١) العقيقي : نجيب ، المستشرقون ، ط٣ ، دار المعارف بمصر / ١٩٦٤ ، ص١٠٤٠

(١٢) البادي، عوض، الرحالة الأوربيون في شمال شبه الجزيرة العربية، ط٢، الدار العربية للموسوعات، (بيروت، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م)، ص١٧-١٨.

(١٣) عطا الله، سمير، قافلة الحِبر الرحالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج، ط١، دار الساقي، (بيروت، ١٩٩٤م)، ص٧٦.

(١٤) عطا الله، المصدر نفسه، ص٥٢-٥٣.

(١٥) عطا الله، المصدر نفسه، ص٦٩-٧٠.

(١٦) كريدية : ابراهيم ، اركان البادية ، ط٥ ، مكتبة نوفل / بيروت ، ٢٠٠٥ ، ص٢١٠

(١٧) البادي، الرحالة الأوربيون، ص٣٧٢-٣٧٣.

(١٨) رالي : اغسطس ، مسيحيون في مكة ، ترجمة : رمزي بدر ، ط١ ، دار الوراق للنشر المحدودة / لندن ، ٢٠٠٧ ، ٥٢

(١٩) هوجارث، اختراق الجزيرة العربية، ص١١٤-١١٦.

(٢٠) هوجارث، المصدر نفسه، ص١٣٠.

(٢١) محمد، أسماعيل علي، الإستشراق بين الحقيقة والتضليل، ط٣، الكلمة للنشر والتوزيع، (لا.مك، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، ص٥٩

(٢٢) عطا الله، قافلة الحِبر، ص١٦.

(٢٣) البادي، الرحالة الأوربيون، ص٤٧١-٤٧٢.

(٢٤) هوجارث، اختراق الجزيرة العربية، ص٢٣.

(٢٥) هوجارث، المصدر نفسه، ص١٨.

(٢٦) عطا الله، قافلة الحِبر، ص٧٥.

(٢٧) الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، ط٨، دار القلم، (دمشق، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ص٥٣.

(٢٨) البادي، الرحالة الأوربيون، ص٥٧.

(٢٩) البادي، المصدر نفسه، ص٥٨.

(٣٠) السيد : فؤاد صالح ، اشهر الاحداث العالمية (١-١٨٩٩م) ، ط١ ، مكتبة حسن العصرية / بيروت ، ٢٠١٥ ، ص٥٧١

(٣١) الميداني، أجنحة المكر الثلاثة، ص١١٢.

(٣٢) الجليند، محمد السيد، الإستشراق والتبشير قراءة تاريخية موجزة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، (القاهرة، ١٩٩٩م)، ص١٠٤.

(٣٣) الميداني، أجنحة المكر الثلاثة، ص١١٦.

(٣٤) العقيقي : المستشرقون ، ص١٠٠٥

(٣٥) شاتليه، أ. ل، الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة: مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب، ط١، منشورات العصر الحديث، (القاهرة، ١٣٥٠هـ)، ص٤٩.

(٣٦) النجار، شكري فيصل، (لمَ الأهتمام بالأستشراق)، مجلة الأنماء العربي للعلوم الأنسانية، العدد ٣١، (بيروت، ١٩٨٣)، ص٦٠

(٣٧) هوجارث، اختراق الجزيرة العربية، ص١٥.

(٣٨) النجار، لمَ الأهتمام بالأستشراق، ص٦٠.

(٣٩) الفيومي، ابراهيم، الأستشراق رسالة أستعمار، ط١، دار الفكر العربي، (مصر، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م)، ص١٤٨.

(٤٠) الفيومي، الأستشراق رسالة الأستعمار، ص١٤٩-١٥١.

(٤١) الميداني، أجنحة المكر الثلاثة، ص٤١-٤٢.

(٤٢) محمد، أسماعيل علي، الإستشراق بين الحقيقة والتضليل، ط٣، الكلمة للنشر والتوزيع، (لا.مك، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، ص٥٦.

(٤٣) محمد، المصدر نفسه، ص٥٧.

(٤٤) محمد، المصدر نفسه، ص٥٩-٦٠.

(٤٥) الزركلي : الاعلام ، ج٣ ، ص٣٧٨

(٤٦) بيرتون، ريتشارد، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ،ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ١٩٩٤)، ص١٥.

(٤٧) هوجارث، اختراق الجزيرة العربية، ص١٧.

(٤٨) عطا الله، قافلة الحِبر، ص٨٢.

(٤٩) البادي، الرحالة الأوربيون، ص٣٤٦.

(٥٠) الفيومي، الأستشراق رسالة أستعمار، ص١١٥-١١٦.

(٥١) ناتنغ، آنتوني وآخرون، لورانس لغز الجزيرة، مكتبة المعارف، (بيروت، ١٤٢٠م/ ١٩٩٩هـ)، ص٥.

(٥٢) مايكل، لورانس ملك العرب غير المتوج، ترجمة: فاطمة نصر، ط١، سطور، (مصر، ٢٠٠٠م)، ص١٠.

(٥٣) ناتنغ، لورانس لغز الجزيرة، ص١١.

(٥٤) ناتنغ، المصدر نفسه، ص٣١-٣٣.

(٥٥) آشر، لورانس ملك العرب، ص٢٤٤.

(٥٦) ناتنغ، لورانس لغز الجزيرة، ص٣٩.

(٥٧) فارتيما، لودوفيكو دي، رحلات فارتيما الحاج يونس المصري، ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ١٩٩٤م)، ص٥١.

(٥٨) فارتيما، المصدر نفسه، ص١٠.

(٥٩) مناصرية، يوسف، مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب، المؤسسة الوطنية للكتاب، (الجزائر، ١٩٩٠م)، ص١٣.

(٦٠) عطا الله، سمير، قافلة الحِبر الرحالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج، ط١، دار الساقي، (بيروت، ١٩٩٤م)، ص٧٠.

(٦١) علي، عرفه عبده، أوربيون في الحرمين الشريفين، ط١، عالم الكتب، (القاهرة، ٢٠١٤م)، ص٩٧-٩٨.

(٦٢) مناصرية، مهمة ليون روش، ص٢٣.

(٦٣) روش، ليون، أثنان وثلاثون سنة في رحاب الأسلام، ترجمة: محمد خير محمود، ط١، جداول للنشر والتوزيع، (بيروت، ٢٠١١)، ص١٣.

(٦٤) بيربروجير، أدريان، مع الأمير عبد القادر، ترجمة: ابو القاسم سعد الله، الطباعة العصرية، (الجزائر، ٢٠٠٦م) ، ص١١٢-١١٣.

(٦٥) بيربروجير، مع الأمير عبد القادر، ص٦-٧.

(٦٦) بيربروجير، المرجع نفسه، ص١١١-١١٢.

(٦٧) علي، أوربيون في الحرمين الشريفين، ص٩٨.

(٦٨) عطا الله، قافلة الحِبر، ص٧٠.

(٦٩) عطا الله، قافلة الحِبر، ص٧٠.

(٧٠) الطريقة التيجانية حقائق واسرار : اعداد اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والافتاء

(٧١) مناصرية، مهمة ليون روش، ص٤١-٤٢.